مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 22 عدد 1 السنة :2023

حديثُ القرآن الكريم عن الآفات الاجتماعيّة

- تحليلٌ وتمثيلٌ وتنزيلٌ –

The Holy Qur'an talks about social ills

–Analysis, representation and downloading –

فعاليات الملتقى الوطني الموسوم بـ:

"جهود علماء الغرب الإسلاميّ في معالجة الآفات الاجتماعية"

مخبر البحث في الدراسات الأدبية والانسانية كلّية الآداب والحضارة الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة.

يومي الاثنين والثلاثاء 25-26 شوال 1444 هـ الموافق لـ 15-16 ماي 2023م

•**اسم ولقب المؤلف الأول: مراد خنيش** **mourad kheniche**

الدرجة العلمية والعنوان المهني: دكتور من **جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة**

البريد الإلكتروني المهني: m.kheniche@Univ-emir.dz .

البريد الإلكتروني الشخصي: mourad1425@gmail.com.

تاريخ الاستلام: ../../2023 تاريخ القبول: ../../2023. تاريخ النشر: 2023 /05/20

مُلخّصٌ باللُّغة العربيّة:

تتناولُ هذه الورقة العلميّة موضوع حديث القرآن الكريم عن الآفات الاجتماعية، انطلاقًا من آيات الموضوع في جانبيه النّظريَ والتطبيقيّ، فَرامَ التّعريف بأساليب القرآن الكريم في حديثه عن الآفات الاجتماعية وتبيين أنواعها ودفعها، والتحذير من آثارها، كلُّ ذلكَ حفاظًا على مصالح الأفراد والمجتمعات في دينهم ودنياهم، ودفع صنوف الأضرار، وزُمرِ الأخطار المحدقة بمنظومة العقيدة والشريعة والأخلاق والقيم في كلّ زمان ومكان.

وقد أفاد البحثُ بجملة معتبرة من أساليب القرآن الكريم في حديثه عن الآفات الاجتماعية، ومنها ما تعلّقَ بعلاجها والحدّ منها، مهما انتشرت، واتّصلت بغيرها وامتزجت، كلّ ذلك في ضوء قاعدة كلّيّة (وهي صلاحية هذا القرآن في تشريعاتها ومقاصده وعلاجاته لكلّ زمان ومكان).

الكلمات المفتاحيّة: القرآن، حديث، الآفات الاجتماعية، تحليل.

Abstract:

This scientific paper addresses the topic of the Quran's discourse on social ills, based on the verses that discuss this subject from both theoretical and practical perspectives. The paper aims to define the methods employed by the Quran in addressing social ills, clarifying their types and ways to prevent and mitigate their effects. It also emphasizes the importance of safeguarding the interests of individuals and communities in their religious and lifeafter lives and preventing various forms of harm and dangers that threaten the system of belief, Sharia, ethics, and values in every time and place.

The research has highlighted a considerable number of methods employed by the Quran in addressing social ills, including those related to their treatment and prevention, regardless of their prevalence or association with other issues. All of this is guided by the overarching principle of the Quran's validity in its legislation, objectives, and remedies for every time and place.

Keywords: The Quran, Prophetic hadith, Social ills, Analysis

مقدمـة:

تُعَدُّ الآفات الاجتماعية موضوعًا من الموضوعات الخطيرة، وهي مجموعة من المهلكات والمشكلات، وصنوف من الفساد، وزمرٌ من الانحراف، لا تضرُّ الفردَ فحسب، بل يتعدّى ضررها إلى المجتمعات والشّعوب، وربّما أدى ذلك إلى ما يشبهُ توارثها، بالإدمان عليها والاعتياد الذي يُصيّرهَا في النّظر الاجتماعيّ أمرًا معهودًا لا يقبلُ الاقلاع عنه، ولا يلزمُ التنفير عنه أو الحدّ منه.

وقد كان القرآن الكريمُ ولا يزالُ دستورًا للأمة بل دستورًا للعالم بأسره، فهو يخاطبُ العالمين بكلّ ما يحقّقُ لهم المصالح ويدفع عنهم المفاسد، وبكلّ ما يجلبُ لهم المنافع ويدفع عنهم المضارّ.

فكان القرآنُ الكريم بأموامره ونواهيه، وشرائعه وتوجيهاته، مُلامسًا لكلّ مشكلات المجتمعات بأنواعها ومستوياتها، معالجًا إيّاها، كاشفًا عن أسبابها وآثارها، كلُّ ذلك بهدف التنشئة القويمة، والتربية الصحيحة، وتنظيم الاجتماع البشريّ، والاستمرار على الفضائل، وصدّ الرذائل.

فكان موضوع الآفات الاجتماعيّة إذًا من الموضوعات التي حظيت بنصيب وافرٍ خصيبٍ من العلاج القرآنيّ، بأسلوب يخاطبُ العقل تارة، ويذكّر بالمصلحة تارة أخرى، ويصوّر ما ينتج عنه ذلك تارة تارة أخرى، ويرسمُ طريق العلاج تارات...

فالموضوعُ إذا منضبطٌ محدّدٌ بحديث القرآن الكريم عنه، مُلامسًا لواقع الناس أينما كانوا إزاء تلك الآفات، راسمًا منهجيّة واضحة في التصدّي لها وعلاجها.

من أجل ذلك وغيره وقع اختياري على دراسة هذا الموضوع، واخترتُ تسميته بـ (**حديثُ القرآن الكريم عن الآفات الاجتماعية– تحليلٌ وتمثيلٌ وتنزيلٌ –**).

وإنّما وقعَ لي هذا الاختيار مُوافقَةً لإحدى محاور الملتقى المبارك، واستجابة لمطلب تبيان المعالجة القرآنية للآفات الاجتماعية.

وقصدتُّ في عنوان هذه الورقة البحثية تناول هذا الموضوع توصيفًا وتحليلاً، مع سوق أمثلة ونماذج في ثنايا ذلك، ومحاولة ربط تلك الآفات بما هو حاصلُ في مجتمعاتنا، وكلّ ذلك كان مشروطًا طرقهُ بشيء من الاختصار والاختزال دون شطط متعمّدٍ أو إخلال.

أوّلا: أسباب اختيار الموضوع: كانت وراء ذلك أسباب أخرى، أهمّها:

1– أهميّة هذا الموضوع ودورهُ في التّرقّي بمستويات وأساليب العلاج الاجتماعي بصفة عامة، وما استجدّ من مشكلات وأنواع الفساد العقدي والقولي والفعليّ، ومختلف السوكيات الاجتماعية.

2– أنّ القرآن الكريم قد تناولَ وعالج كلّ ما من نشأنه يحدثُ اختلالا واضطلابا في حياة الأفراد والمجتمعات وعلاقاتهم فيما بينهم، لكن بأساليب لها تميّزها، وارتباطها بمقاصد القرآن ومحاوره الكبرى، فكان الاشتغال على إبرازها وتبيانها من الأهمّية بمكان.

ثانيًا: إشكالية الموضوع: مِن أَجْلِ ما سبق وغيره انطلقَ هذا البحثُ من التّساؤل عن موضوع الآفات الاجتماعية ومستويات حضوره في القرآن الكريم كموضوع للعلاج، وكظاهرة من ظواهر الفساد التي تناولها القرآن الكريم وعالجها، واستجلاء خُصُوصِيَات هذا التناول القرآنيّ.

وَتتفَرّعُ عنها أسئلةٌ أخرى:

1– لماذَا البحثُ في هذا الموضوع في القرآن الكريم اليوم ؟

2- ما هي معالم المنهجية القرآنيّة في عرض موضوع الآفات ؟

3- وما هي أنواع الآفات التي تحدّث عنها القرآن الكريم؟

4- وهل تعرض القرآن الكريمُ لأسبابها وآثارها؟

ثالثًا: أهدافُ الموضوع: كان العمل في هذا الموضع هادفًا على وجه أساس إلى:

1- إبراز معالم العلاج القرآنيّ للآفات الاجتماعيّة، والتعريف بأساليبه في ذلك.

2- بيان تأثر الآفات بعضها ببعض وما ينتجُ عن ذلك من ركامٍ آفاتيّ.

3- الاقتداء بالمنهج القرآني وأساليبه في تناول موضوع الآفات الاجتماعية تشخيصًا وعلاجًا.

رابعًا: خطة الموضوع: من أجل بلوغ أهداف البحث ومقاصده لابدّ أن ينتظم العمل ضمن خطّة جامعة لأطرافه، موضّحة لأفكاره، تجتمعُ في مبحثين اثنين ضمنتهما مطالب فرعية.

أمّا المبحث الأول فقد قدّمتُ فيه مفاهيم حول الآفات الاجتماعية وألفاظ في معناها في القرآن الكريم، فعرّفتُ في المطلب الأول بالآفات لغة واصطلاحًا، وعرّفتُ في المطلب الثاني بألفاظ في القرآن في معنى (الآفة) أو تقاربها.

وأما المبحثُ الثاني فقد درستُ فيه حديثَ القرآن الكريم عن الآفات الاجتماعية، فبيّنتُ في المطلب الأول أنواع الآفات التي تحدّث عنها القرآن الكريم، واشتغلتُ في المطلب الثاني بأساليب القرآن الكريم في حديثه عن الآفات الاجتماعية من خلال نماذج وأمثلة منها، وفي المطلب الثالث قدّمتُ قراءةً تنزيليّةً استثماريّةً لأساليبِ القُرآن في الحديث عن الآفات الاجتماعيّة مع ملامسة واقع تلك الآفات في واقعنا اليومعمومًا والتمثيل بآفة الحسد ولوازمها باعتبارها آفة لا تكاد تسلمُ منها نفسٌ أو مجتمعٌ.

خامسًا: المناهج المتّبعة: وتوضيحًا لفكرة العمل أكثر، وتحقيقًا لمقاصده، اعتمدتُّ مناهج ثلاثة:

المنهج الاستقرائي: يحضُرُ عند استقراء جملة من النصوص القرآنية، التي تحدّث عن الآفات بألفاظ أخرها تصبُّ في معناها.

المنهج الوصفي: يحضرُ هو الآخر في توصيفِ بعض الآفات على اختلاف أنواعها، وكذا توصيف أساليب القرآن في حديثه عن الآفات الاجتماعية.

المنهج التّحليليّ: يتدخّل عند التناول التحليليّ لنصوص تلك الآفات، ومحاولة استجلاء معانى استمراريتها وشيوعها في مجتمعاتنا، ولو وقع ذلك بأسماء وعناوين أخرى.

سادسًا: الدّراسات السّابقة: أمّا الدّراسات الخاصّة بموضوع حديث القرآن الكريم عن الآفات الاجتماعية بهذا العنوان وتلك المقاصد والأهداف، وبذلك التمثيل وذاك التنزيل، فلم أجدْ ما يجزئُ في الموضوع، إلاّ تناولات وإشارات ضمن أعمال علمية أخرى تتقاطع مع موضوع الآفات في بعض أنواعها وأفرادها، على تفاوتٍ بينها في البسط والاختصار تبعًا لمقاصدها هي الأخرى.

ولعلّ أهمّها وأولاها بالاستظهار ما يلي:

1- المنهاج القرآني في التّشريع، دكتور عبد الستار فتح الله سعيد، مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ط1 (1413 هـ/ 1992م) ، وأصلها أطروحة دكتوراه في جامعة الأزهر، نوقشت سنة (1395 هـ/ 1975م)، استفدتُ منها بعض الأفكار التي أعانت على تَصوُّر طريقة العَمَلِ، وربط أفكار بأخرى، وقد تناول منهج القرآن في تشريع الأحكام والحدود والعقوبات وغيرها من القضايا المكمّلة، جامعًا بينَ النّظرين التّفسيريّ والفقهيّ.

2- آفات النّفس كما يُصوِّرُها القرآن الكريم – دراسة موضوعيّة- ، إعداد الطّالبة نعيمة عبد الله البرش، إشراف الدكتور رياض محمود قاسم، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن (1429 هـ/ 2008م)، بقسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة، تحدّثت الطالبة في تسعة مباحث عن تسع آفات النّفس: الهوى، والاستكبار، والحسد، والرياء، والعجب ، والغرور، والخوف، والعجلة، والغضب.

وكان حديث الطالبة عن آفة الحسد في المبحث الخامس من الفصل الثالث: (آفاتٌ وآثارها في القرآن الكريم)، وقد وقع في نحو 04 صفحاتٍ، **وسَيَجِدُ النّاظر في العملين اختلافًا في طريقة التّناول وتمايزًا بيّنا في الأفكار المطروحة، والنّصوص الموظّفة، وقد يكون مرجعُ ذلك إلى اختلاف تساؤلات كلّ منهما وأهدافهما.**

وقد استفدتُ من تلك الدراسات والأبحاث أفكارًا وأنظارًا، مادّةً ومنهجًا، أعانت على ترتيب أفكار البحث، وتصوير قضاياهُ، **غير أنّ أغلبَ عملي كان مُركّزًا – أكثر – على بحثِ تلك الآفات الاجتماعية من خلال ما أقاويل المفسّرين وتأويلاتهم، وتقريراتهم لمعانٍ كلّية أو جزئيّة، واستنباطاتهم المُستَملَحة، لذا كانت تفاسيرهم أكثر مصادري ومراجعي.**

وربّما حصل لي من التّراكم المعرفيّ في بعض المجالات وعند بعض القضايا والأفكار ما جعلني أسوق الحديث فيها سوقًا، وأعرضُ الآفة مُنطَلِقًا من معانيها ومفاهيمها المقرّرة في المبحث الأوّل من هذا البحث، ثمّ أبحثُهَا في كلام أهل التّفسير، وكثيرًا ما أُراعي معاني ارتباطِ الآي التي تحدَّثَت عن تلك الآفات، وفَوائد ترتيبها، ونكاتِ ختم آياتها، مع تمسُّكٍ بتقريرات بعض المفسّرين، واعتمادٍ على مدلولاتِ عباراتهم.

سابعًا: الإضافة العلمية المرجوّة: لا أزعمُ أنّ الموضوع لم يُطرَق من كلّ جوانبه، ولكن أزعمُ أنّ جوانبَ منه تحتاجُ إلى دراسة، واستجماع مادّتها وعرضها بما يُسهّل تناوَلها والاستفادة منها، ويُصوّر خصوصية حديث القرآن الكريم وأساليبه في تناول الآفات الاجتماعية أسبابا وآثارًا وأنواعًا وعلاجًا، هذا فإن كان يلزمُ في هذا الموضع تعريف القارئ بالإضافة العلمية، فإنّهُ يمكن للباحث أن يزعُم جانبًا منها مَرجُوًّا، وهو في النّقاط الآتية:

1- التّنويهُ بالتناول القرآني للآفات الاجتماعية وتميّزه في ذلك، وصلاحيته لكلّ ما يستجدُّ منها.

2- ربطُ الآفات الاجتماعية بأسبابها وآثارها من خلال نماذج تحدث عنها القرآن الكريم مع التّمثيل لذلك.

3- استظهارُ ارتباط موضوع الآفات الاجتماعية بمقاصد القرآن وكليات الشريعة الكبرى.

هذا وثمّة أفكار وأنظار أودعتها هذه الورقة العلميّة، فإن وُفّقتُ من الله سبحانه، وإن أخطأتُ فمنّي ومن الشيّطان الرّجيم، وأستغفرُ الله الغفور الرّحيم، وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحثُ الأوّلُ: تعريف الآفات الاجتماعية وألفاظ في معناها في القرآن الكريم :

يقدّمُ هذا المبحث تعريفات ومفاهيم للآفات في اللغة والاصطلاح والاستعمال القرآنيّ، وذلك من أجل أن يتأسّس البحثُ عليه في شطره الثّاني، وهو فيما يأتي:

المطلب الأول: تعريف الآفات لغة واصطلاحًا:

أوّلا: الآفات: لغة: جمع آفة، قال الفراهيديّ: " آف: الآفة: عَرَضٌ مُفسِدٌ لما أصاب من شيءٍ.. والجميع: الآفات. ويُقال: آفة الظَّرْف: الصَّلَفُ.. وآفة العِلْم: النِّسيانُ. إذا دخلتِ الآفة على قومٍ قيل: قد إفُوا، ويقال في لغة: قد إيفُوا"[1]، وعند الكسائيّ عن أبي عبيد القاسم بن سلام: " الكسائي: طعام مَؤُوْفٌ، مثال مَخُوف، أيْ: أصابته آفة" [2].

وقال ابن سيّد النّاس: "الآفَةُ عَرَضٌ مُفْسِدٌ، وطعَامٌ مَؤُوْفٌ أَصابتهُ آفَةٌ، وأَأَفَ القَوْمُ دَخَلَتْ عليهم آفَةٌ، وآفَتِ البلادَ تَؤُوْفُ أَوْفًا وآفَةً وأُوْفًا كقولكَ: عُوفًا صَارَتْ فِيهَا آفَةٌ"[3].

وفي الحديث: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم (نهى عن بيع النّخل حتى يَزهُوَ، وعن السُّنبُلِ حتّى يبيضَّ، ويَأمَنَ العَاهة، نهى البائع والمشتري)[4]. قال عياض: " قوله :(حتّى تأمن العاهة ، وأصابها عاهة أي: آفة وأكثر ما يستعمُل في المال، قال الخليل: العاهة البلايا تُصيبُ الزَّرع والنّاس"[5].

وتُطلقُ الآفاتُ ويُرادُ بها ضياع السّلام والسّلامة، وهو ما نجدُهُ عند الفيروز أبادي عند تناوله بصيرة (سلم) فقال: " السَّلام والسّلامة: **التّعرّى من الآفات الظَّاهرة والباطنة**، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ**(89)﴾ **[الشعراء]**

---

[1] – كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ، 8/ 410

[2] – الغريب المصنف، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي، 2/ 463

[3] – المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، 10/ 549.

[4] – أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب النهي عن بيع الثمار قبل بدو صلاحها بغير شرط القطع، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

[5] – مشارق الأنوار على صحاح الآثار، أبو الفضل عياض بن موسى السبتي، 2/ 106.

أَي: من الدّغَل، هذا فى الباطن، وقال تعالى: (**مُسَلَّمَةٌ لاَّشِيَةَ فِيهَا(71))[البقرة]** هذا في الظَّاهر. يُقالُ: سَلِمَ يَسلَمُ سَلَامَةً، وَسَلاَمًا، وسلَّمه الله"[1].

وعند قوله تعالى:(**تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ (22))[طه]**:"أَي: غير آفة بها. وَفُسِّرَ بالبَرَصِ، وذلكَ **بعض الآفَات التي تعرّض لليَدِ**"[2].

ثانيًا: الآفات اصطلاحًا: لم تجدُ – في حدود اطّلاعي وبحثي – ما يُفيدُ العناية بتعريف (مصطلح) الآفة عند العلماء في الاصطلاح، ولعلّ ذلك راجعٌ إلى وضوح معناهُ في استعمالاتهم وإطلاقاتهم في السّياقات المختلفة والمجالات العلمية المتنوعة. **فهو إمّا أن يُطلق بمعناهُ اللّغويّ، وإمّا أن يطلق بمعنى يُضادّ للسّلامة.**

أمّا الأوّل فهو ظاهرٌ – في قراءتي ونظري – إذا ما تُتُبِّعَت الآفاتُ ضمن تفسير المفسرين وتأويلهم للآيات المتحدّثة عن الفسَاد والهلاك والبَوْرِ والخسران حِسّيًّا كان أو مَعنويًّا، وستأتي بعض أمثلتها في المطلب الثاني.

وأمّا الثاني فقد تلمّستُهُ من عبارات بعض أئمّة التّفسير عند تناولهم لبعض الآيات القرآنية تفسيرًا أو تأويلًا، ومن تلك العبارات والنُّصُوص ما يلي:

- **ما نجدهُ عند الفيروز آبادي** من إطلاق الآفات **والمراد بها ضياع السّلام والسّلامة،** فعند تناوله بصيرة (سلم): " **السَّلام والسّلامة: التّعرّى من الآفات الظَّاهرة والباطنة،** قال تعالى:(**إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))[الشعراء]**أَي: من الدّغَل، هذا فى الباطن، وقال تعالى: (مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا) هذا في الظَّاهر. يُقالُ: سَلِمَ يَسلَمُ سَلَامَةً، وَسَلاَماً، وسلَّمه الله" [3].

3- وما نجدُهُ في كلام الإمام الآلوسيّ عند قوله تعالى:(**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84))[سبأ]**، قال: " (**بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**) أي: **سالم من جميع الآفات كفسَاد العَقائد والنّيات السّيئة والصّفات القبيحة كالحسَدِ والغِلِّ وغير ذلك،** وعن قتادة: تخصيص السّلامة بالسّلامة من الشّرك، والتّعميم الذي ذكرناهُ أولى أو سالم من العلائق الدّنيويّة، بمعنى: أنّهُ ليس فيه شيءٌ مِن محبّتهَا والرُّكون إليها وإلى أهلها ..."[4].

4- وقال القشيريّ: عند قوله تعالى: (**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))[الشعراء]**. قيل: (القلب السّليم) اللديغ. وقيل: هو الذي سَلِمَ من الضّلالة ثمّ من البدعة ثمّ من الغفلة ثم من الغِيبة

[1] – بصائر ذوي التمييز، 3/ 252.
[2] – بصائر ذوي التمييز، 3/ 288.
[3] – بصائر ذوي التمييز، 3/ 288.
[4] – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 12/ 97.

ثمّ من الحجبة ثمّ مِن المضاجَعَة ثمّ من المساكنَة ثمّ مِن الملاحظة. **هذه كُلُّها آفاتٌ**، والأكابرُ سلموا منها، والأصاغِرُ امتُحِنُوا بها"[1].

5- وقال القُشيري أيضًا عند قوله تعالى: **(ولَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16))[ق]**: "نعلمُ ما توسوسُ به نفسُهُ من شهواتٍ تُطلبُ استنفاذها، مثل التَّصنُّع مع الخلق، وسوء الخُلق، والحقد... وغير ذلك من آفات النّفس التي تُشَوّشُ على القَلبِ والوَقتِ "[2].

6- وقال الزّمخشريّ: عند قوله تعالى: **(فيهَا أَنهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (15))[محمد]**:" مِن لَبنٍ لَمَ يَتَغَيَّر طَعمُهُ كمَا تتغيّرُ ألبانُ الدّنيا، فلا يعودُ قارصًا ولا حاذرًا، ولا ما يُكرهُ مِن الطُّعُوم ... والمعنى: ما هو إلّا التّلذُّذُ الخالصُ، ليسَ معه ذهابُ عقلٍ ولا خمارٍ ولا صُدَاع، ولا آفةٌ من آفَاتِ الخمر ..." [3].

فمن خلال تلك النّصوص لأولئك الأعلام والأئمّة واستضاءةً بمدلولاتها اللّغويّة السابقة يمكنُ القول في تعريف الآفة في اصطلاح علماء القرآن والتّفسير أنّ:

" الآفةُ هي كلّ ما يعرضُ من الفساد والهلاك والخسران والبلايا والعاهات على الإنسان أو الحيوان أو النّبات أو الأمور المعنويّة، سواء تعلّق ذلك بدين النّاس أو دُنيَاهم".

المطلب الثاني: ألفاظ في معنى (الآفة) في القرآن الكريم: لم يرد هذا اللفظ ولا ما اشتُقّ منه في القرآن الكريم، غير أنّ تحديد المعاني اللغويّة للآفة في المعاجم والقواميس، والبحث في معاني جمهرة من الألفاظ المقاربة كلّ ذلك يُنتجُ أنّ الآفة بمعناها المقصود في اللّغة والجاري عليه هذا البحث **قد وَرَدَت في معانيه أو ما يُقاربُها ألفاظ أخرى**، فمن أظهر الألفاظ ما يأتي:

1- لفظ (البَوْر): كما قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (29)لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30))[فاطر]**، فقوله تعالى: **(لن تبور)** أي: لَنْ تَفْسَدَ[4]، وقال الطّبريّ: "يرجون بفعلهم ذلك تجارة لن تبور: لن تكسد ولن تهلك، من قولهم: بارت السّوق إذا كَسَدَت، وبَارَ الطّعام"[5].

[1]- لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن القشيري، 3/ 15.

[2] - لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن القشيري، 3/ 450.

[3]- الكشاف، للزمخشري، 4/ 322.

[4]- تفسير يحي بن سلام، 2/ 787، وينظر: تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زَمَنِين الألبيريّ، 4/ 31.

[5] - جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، 20/ 463،

ومن ذلك قوله تعالى:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29))[إبراهيم]، قال الطّبريّ:"وقولُهُ:(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ) يقولُ: وأَنزلُوا قومَهُم مِن مُشركي قُريش دارَ البَوَار، وهي دار الهلاك، يقالُ منه: بَارَ الشّيءُ يَبُورُ بَورًا: إذَا هَلَكَ وَبَطَلَ... " [1].

2- لفظ (الفَسَاد): ومن ذلك قوله تعالى: **(وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12))[البقرة]**، وقد أخرج الطبريّ في تفسيره عن ابن مسعود : (عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)** ، هم المنافقون. أمّا **(لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ)**، فإن الفساد، هو الكفر والعملُ بالمعصية)[2].

وفي الأثر عن الربيع: (عن الرَّبيع: **(وإذَا قِيلَ لهمْ لا تُفسِدُواْ في الأَرْضِ)** يقول: لا تَعصُوا في الأرض **(قالوا إنَّمَا نحن مُصلِحُونَ)**، قال: فكان فسادُهم ذلك معصيةَ الله جل ثناؤه، لأنّ من عَصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته، فقد أفسدَ في الأرض، لأنّ إصلاحَ الأرض والسّماء بالطّاعة) [3].

3- لفظ (المرَض): وقد ورد في سياقات كثيرة، وبصيغ مختلفة، منها قوله تعالى:**(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)[البقرة]** قال الطّبريّ: "وأصلُ المرَض: السَّقم، ثمّ يُقالُ ذلك في الأجساد والأديان. فأخبَرَ اللهُ جلّ ثناؤهُ أنَّ في قُلُوب المنافقين مَرَضًا، وإنَّمَا عنى تبارك وتعالى بخبره عن مرض قلوبهم، الخبرَ عن مرض ما في قلوبهم من الاعتقاد، ولكن لـمّا كان معلومًا بالخبَر عن مرض القلب، أنَّه معنيٌّ به مرضُ ما هم معتقدُوه من الاعتقاد – استغنى بالخبَر عن القلب بذلك، والكفاية عن تصريح الخبَر عن ضمائرهم واعتقاداتهم...

فكذلك معنى قول الله جل ثناؤُهُ: **(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)** إنما يعني: في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله مَرَض وسُقْم. فاجتزأ بدلالة الخبَر عن قلوبهم على معناهُ، عن تصريح الخبر عن اعتقادهم.

والمرضُ الذي ذكر اللهُ جلَّ ثناؤُهُ أنّهُ في اعتقاد قُلُوبِهِم الذي وَصَفنَاهُ: هو شكُّهُم في أمر محمّدٍ وما جاء به مِن عند الله، وتحيُّرُهم فيه، فلا هُم به مُوقنونَ إيقانَ إيمانٍ، ولا هُم له مُنكرُونَ إنكارَ إشراك، ولكنهم كما وصفهم الله عزّ وجلّ، مُذَبذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كما يقال: فلانٌ يمرِّضُ في هذا الأمر، أي يُضَعِّف العزمَ ولا يُصحِّح الرّوِيَّة فيه.

وبمثلِ الذي قُلنَا في تأويل ذلك، تَظاهرَ القولُ في تفسيره من المفسِّرين"[1].

[1] – جامع البيان، للطبريّ، 16/ 05.
[2] – جامع البيان، للطبريّ، 1/ 288.
[3] – جامع البيان، للطبريّ، 1/ 288.

هذا؛ وإنّ إلقاء نظرة على بعض الدّراسات الحديثة يجدُ مصطلح (الآفات) حاضرًا في سياق التناول البحثي للمشكلات التي تحلُّ بالمجتمعات الإنسانيّة.

وحينئذٍ تجدُ تعبيرًا عن الآفة بمصطلح المشكلة، مع أنّ معنيي المصطلحين مختلفان في الظّاهر، إلاّ أنّهما متقاربان من جهة الدّلالة على ما يُستعصَى علاجه، فقد تكون الآفة مشكلة حقًّا، غير أنّ الحاصل هو التعبير بأحدهما وإرادة الآخر في سياق العلاج المجتمعيّ[2].

المبحثُ الثاني: أساليبُ القرآن الكريم في حديثه عن الآفات الاجتماعيّة:

هذا المبحثُ يستنبطُ ويعرّفُ بجملة من أساليب القرآن الكريم في حديثه عن الآفات الاجتماعية وتناولها وعلاجها تصريحًا كان ذلك أو تلميحًا، وسأكتفي بما يحقّق الغرض في هذا المبحث من خلال تَتَبُّعٍ وقراءةٍ في الآيات التي تحدّثت عن آفاتٍ، ونظرٍ واستفادةٍ من نصوص المفسّرين وأقوالهم، وذلك على النّحو الآتي:

المطلب الأوّل: أنواع الآفات التي تحدّث عنها القرآن الكريم: إنّ حديث القرآن الكريم عن الآفات لم يكن خاصًّا بها أو ببعضها أو بها آحادًا، وإنّما وردَ حديثُهُ عن جميع ما يتّصلُ بها عن طريق معاني ألفاظ أخرى تصبُّ معانيها في لفظ الآفة لغويًّا.

لقد تحدّث القرآن عن كُلّ **ما يُفسِدُ** الدّين والنّفس والعقل والعرض والمال، بل حضّ على الحفاظ عليها وصيانتها، لأنّ ما يُفسدُ هذه المذكورات إنّما هي مُذهبَاتها ومُضيّعاتها ومُهلكاتها وجَالباتُ الضّرّ إليها، **فهي** آفات إذن تهدّدُ الضّرورات الخمس المتّفق عليها.

قال الشّاطبيّ:" اتّفقت الأمّة – بل سائر الملل – على أنّ الشريعة وُضعت للمحافظة على هذه الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وَعِلمُها عند الأمّة كالضّروريّ، ولم يَثبُت لنَا ذلكَ بدليلٍ مُعينٍ، ولا شَهدَ لَنَا أصلٌ معينٌ يمتازُ برُجُوعِهَا إليه، بَل عُلِمَت مُلاءَمتُها للشّريعةِ بمجمُوعِ أدلّةٍ لا تَنحصِرُ في بابٍ واحدٍ... "[3].

غير أنّ **الإمام ابن عاشور** يظهرُ مخالفًا في كونها ممّا اتّفقت عليه سائر الأمم، فهو يقول:"...وأمّا ما يذكرُهُ علماءُ الإسلام إنّ الإسكار حرام في الشّرائع كلّها فكلام لا شاهد لهم عليه بل الشّواهد على ضدّه مُتوافرة، وإنّما جرّأهم على هذا القول ما قعّدُوهُ في أصول الفقه من أنّ الكليات التّشريعية وهي: **حفظ الدّين والنّفس والعقل والنّسب والمال والعرض** هي ممّا اتّفقت عليه الشّرائع، وهذا القولُ وإن كُنّا نُساعدُ عليه فإنّ معناهُ عندي أنّ الشّرائع كلّها نظرت إلى

[1] – جامع البيان، للطبريّ، 1/ 278- 280.

[2] – تنظر مفاهيم وأفكار متعلقة بالمشكلات الاجتماعية في مقدّمة كتاب: علم المشكلات الاجتماعية، للأستاذ الدكتور معن خليل العمر، ص 11- 14.

[3] – الموافقات، لأبي إسحاق الشاطبي، 1/ 31.

حفظ هاته الأمور في تشريعاتها، وأمّا أن تكون مراعاة باطراد في غير شريعة الإسلام فلا أحسبُ ذلك يتمُّ، على أنّ مُراعاتها درجات، ولا حاجة إلى البحث في هذا..." [1].

وإذا ما بحثنا تقرير القرآن الكريم لتلك الكلّيات وجدنا ذلك واضحًا في مواضع كثيرة من جهتي الإيجاد والعدم، وهو ما أوضحهُ علماء الأصول والمقاصد.

ففي تقرير كلّيّة **الدّين رغّب القرآن الكريم في المحافظة عليه**، فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)**﴾**[آل عمران]**، وقال سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)**﴾**[آل عمران]**، ورهّب من إفساده بأنواع من الكفر والنّفاق والمعاصي، وشرّع حدّ الرّدّة.

وفي تقرير كلّية النّفس رغّب القرآن في المحافظة على حياتها، وحذّر من إزهاقها بغير حقّ، وشرّع القصاص للقتل عمدًا.

وفي تقرير كلّيّة العقل رغّب القرآن في المحافظة عليه وأبان عن إناطة التكليف به، ورفع من شأنه، وحذّر من كلّ ما يذهبُهُ ويفسدُهُ من أنواع المسكرات، وما يُعطّلُ دورهُ في الرّقي بالمجتمعات، وشرّع على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّ شرب الخمر وعقوبته.

وفي تقرير كلّيّة العرض حضّ القرآن على المحافظة عليه، وحرّم القذف وأنواع التّهم المفرّقة والمشتتة للعلاقات الأسرية والاجتماعية عمومًا، وشرّع حدّ القذف واللّعان.

وفي تقرير كلّيّة المال بين القرآن مكانته وحثَ على طرق اكتسابه وشرحَ مستحقي الزّكوات والصدقات، وحرم سرقته وأكل أموال الناس بالباطل والاستيلاء على حقوق الآخرين، وشرّع حدّ السّرقة[2].

كلُّ ذلك كان صورة جليّة في جمع القرآن الكريم بين بيان الآفات وإيضاح أليق الطرق الصالحة لكل زمان ومكان لدفعها وعلاج المجتمع الذي ابتُليَ بها، كسنّ العقوبات، وتشريع الحدود، وبيان الأضرار الناجمة على مستوى الأفراد والجماعات.

[1] – التحرير والتنوير، 2/ 338- 339.

[2] – ينظر في تقرير تلك الكليات: رَوضةُ النّاظر وجَنَّةُ المَناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة، 1/ 480- 481، وبين علمي أصول الفقه والمقاصد، تأليف الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، 2/ 139- 140، وينظر قريبا منه في: 2/ 170، وعلم المقاصد الشرعية، للدكتور نور الدين بن مختار الخادمي، ص 81- 85، والمنهاج القرآني في التشريع، دكتور عبد الستار فتح الله سعيد، ص 641، 652،

فالنّاظرُ في القرآن المقتدرُ على الاستنباط يمكنُهُ إرجاع جميع الآفات إلى ما يتعلّق بتضييع تلك الكلّيات الخمس التي سبق الحديث عنها، وأسباب ذلك وما ينتجُ عنه.

ثمّ **إنّ الانطلاق من الدلالة اللغوية للفظة (آفة) ومعانيها السياقية والاستعمالية في القرآن الكريم** يمكنُ تصوّر أنواع الآفات بالنّظر إلى موضوعاتها ومجالاتها في حديث القرآن الكريم عنها، في الأنواع الآتية:

النوع الأوّل: الآفات العقديّة: كآفات الشّرك والكفر والجحود والنفاق وتكذيب الرّسالة واعتقاد الضّر والنّفع في الوسائط، وغيرها من صنوف الاعتقادات الباطلة، ممّا كشف عنه القرآن الكريم في غير ما موضع، ومن باب ضرب المثال فقد تكفّلت سورة الأنعام ببيان أكثر العقائد الباطلة أو أصولها، والتّحذير من آثارها، وبيان جزاء أصحابها في الدّارين، وهي التي تسمّى عند المفسّرين وعلماء القرآن بسُورة التّوحيد، أو العقيدة.

النوع الثاني: الآفات التّعبّدية: كآفات التقصير في أداء العبادات المفروضة، والقيام بالواجبات، وأنواع الطاعات التي أمر بها الشارع الحكيم.

النّوع الثالث: الآفات الأخلاقيّة والسّلوكيّة: ويعنى بها – أكثر – ما يُعبّرُ ويَدُلُّ على أحوال النّفوس وعلاقاتهم فيما بينهم، أفرادًا وجماعاتٍ، وعلاقاتهم بغيرهم في المجتمع الواحد أو غيره، كالسّخرية والغيبة والتّجسّس وسوء الظنّ، والحسد، والغرور، والتكبّر، والسّرقة، والخيانة، والكذب ... وغيرها.

ثمّ إنّ هذه الأنواع الثلاثة يمكنُ إرجاعها إلى اختلال في الكيات الخمس السابقة الذّكر: حفظ الدين والنفس والعقل والنّسب والمال والعرض، وقد أفاد الفخر الرازي عند قوله تعالى: (**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))[الأعراف]** أنّ المصالحَ المعتبرةَ في الدُّنيا هي هذه الخمسة: النُّفُوس والأموال والأنساب والأديان والعقول...[1]. وسيأتي كلامهُ بتمامه قريبًا.

المطلب الثاني: أساليب القرآن في حديثه عن الآفات الاجتماعية: يختلف أسلوب القرآن في التعرّض لأسباب الآفات وآثارها باختلاف أنواع الآفات وسياقات الحديث عنها، وإنّ المتتبّع لأسلوبه يستوعب جوانب منهجية ونقاطا أسلوبيّة، لعلّ أهمّها ما يأتي:

أوّلًا: أن يتحدّث القرآنُ الكريمُ عن عُمُوم الفَسَاد: والمقصود بذلك أن القرآن قد تحدّث عن الآفات باعتبارها ظاهرة فاسدة أو مؤدّية إلى فساد، أو صورة من صور الفساد، فكان أسلوبه العام في هذه السّياقات ذمّ الفساد والتّحذير منه وبيان آثاره وسوق أمثلة عنه وعن المفسدينَ.

[1]- التفسير الكبير، للرازي، 14/ 283. – بتصرف يسير –

• من ذلك قوله تعالى: (**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)) [الأعراف]**. يقول الفخر الرازي في المسألة الأولى من مسائل الآية: "(**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها**) معناهُ ولا تُفسدُوا شيئًا في الأرض، فيدخُلُ فيه المنعُ مِن إفسادِ النُّفُوس بالقتلِ وبقطعِ الأعضاء، وإفسادِ الأموالِ بالغَصبِ والسَّرقةِ وَوُجُوهِ الحِيَلِ، وإفسادِ الأديانِ بالكُفرِ والبِدعةِ، وإفسادِ الأنسَابِ بسَبَبِ الإقدَامِ على الزِّنَا واللِّوَاطَة وسَببِ القَذف، وإفسادِ العُقُول بسبَبِ شُربِ المسكرات، **وذلكَ لأنَّ المصالحَ المعتبرةَ في الدُّنيا هي هذه الخمسة: النُّفُوس والأموال والأنساب والأديان والعقول.** فقوله: (**ولا تُفسِدُوا**) منعٌ عن إدخالِ ماهيةِ الإفسَادِ في الوُجُود، والمنعُ مِن إدخالِ الماهيةِ في الوُجُودِ يقتضِي المنعَ مِن جَمِيعِ أنواعِهِ وأصنافِهِ، فَيَتنَاولُ المنعَ مِن الإفسَادِ في هذه الأقسام الخمسة.

وأمَّا قولُهُ: (**بعدَ إِصلَاحِهَا**) فيحتملُ أن يكون المرادُ: بعدَ أَن أَصلَحَ خِلقَتَها عَلَى الوجهِ المطابِقِ لمنافعِ الخلقِ والموافِقِ لمصالحِ المكلَّفِينَ، ويحتمَلُ أن يكونَ المرادُ: بعد إصلاحِ الأرضِ بسببِ إرسالِ الأنبياءِ وإنزالِ الكُتُب كأنَّهُ تعالى قال: لَمَّا أَصلحتُ مصالحَ الأرضِ بسببِ إرسالِ الأنبياءِ وإنزالِ الكُتُب وتفصيلِ الشَّرائع فَكُونُوا مُنقادِينَ لَهَا، وَلا تُقدِمُوا على تكذيبِ الرُّسُل وإنكارِ الكُتُب والتَّمرُّدِ عن قَبُولِ الشّرائع، فإنَّ ذلكَ يقتضي وُقُوعَ الهَرَجِ والمرَجِ في الأرض، فَيَحصُلُ الإفسادُ بعد الإصلاح، وذلك مُستكرَهٌ في بداهة العقول"[1].

وفي هذا السّياق نجدُ الحافظ ابن كثير يختصرُ المعاني التي سبقَت في نصّ الفخر الرازي ويشيرُ إليها بعبارات جامعة قائلاً: "وقوله تعالى: (**ولا تُفسِدُوا في الأَرضِ بَعدَ إِصلَاحِهَا**) ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضرَّهُ بعد الإصلاح! فإنّهُ إذا كانت الأمورُ مَاشيةً على السَّدَاد، ثمَّ وَقَعَ الإفسَادُ بعد ذلك، كانَ أَضَرَّ مَا يكونُ على العِبَاد. فَنَهَى اللهُ تعالى عَن ذلكَ، وَأَمَرَ بعبادَتِهِ ودُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ إليه والتَّذَلُّلِ لَدَيهِ، فقال: (**وادْعُوهُ خَوفًا وَطَمَعًا**) أي: خوفًا مِمَّا عِندَهُ مِن وَبِيلِ العِقَابِ، وَطَمَعًا فِيمَا عِندَهُ مِن جَزِيلِ الثَّوابِ"[2].

• ومن الآيات الواردة في النهي عن الفساد قوله تعالى: (**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85)[الأعراف]**، وقوله تعالى: (**وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142))[الأعراف]**، وقوله تعالى على لسان نبيّه صالح عليه

[1]- التفسير الكبير، للرازي، 14/ 283، وينظر قريب منه في: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، 2/ 130.

[2] - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدّمشقي، 3/ 429.

السلام: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (152)) [الشّعراء][1].

ثانيًا: أن يتحدّثَ القرآنُ الكريمُ عن الآفة مع التّصريح بأسبابها وآثارها: كما نلحظُهُ في آية تحريم آفة الخمر، قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92))[المائدة]**.

أمّا الآفة المنهيّ عنها فشُرب الخمر وما جاورها من أنواع المسكرات والمفسدات للعقول.

وأمّا سبب الآفة فطاعة الشّيطان فيما يوسوس به ويوحي به إلى العبد، وهو دليلٌ على ضعف العبد.

وأمّا آثار الآفة فما يحصلُ من أنواع العداوات وصنوف البغضاء والصّدود عن ذكر الله تعالى وتعظيمه وترك الصّلاة، وثمّة آثارٌ سلبيّةٌ أخرى ذكرها القاسميّ فقال: "...ثمّ بيّنَ ما فيها من المفاسد، خُصُوصًا في الخمر والميسر مِن إيقاع العداوة والبغضاء، والصّدّ عن ذكر الله وعن الصّلاة. وهذا في الفساد أعظم مما ظنُّوهُ فيها صلاحًا. لأنّ الخمرَ كانت عندهم تُشجّعُ الجَبَان، وتَبعَثُ البَخيلَ على البذل، وتُنشّطُ الكُسالى... "[2].

وأمّا علاج الآفة فبالترغيب في طاعة الله ورسوله فيما نَهَوا عنه من الخمر والميسر، والتوبة إلى الله، وهذا الأخير يفيدهُ قوله تعالى بعد النّهي السّابق: **(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93))[المائدة]** فيما وردَ في نزولها: **(...فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا مَنْزِلَةُ مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْرَبُهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) الآيَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ لِقَتَادَةَ: أَنتَ سَمعتَه مَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ؟ قَالَ: نَعَم. وَقَالَ رَجُلٌ لِأَنَسِ بنِ مَالِكٍ: أَنتَ سَمِعتَهُ مِن رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ قَالَ: نَعَم – أَو: حَدَّثَنِي مَن لَم يَكذِبْ، مَا كُنَّا نَكذِبُ، وَلَا نَدرِي مَا الكَذِبُ)**[3].

[1] – يُنظر تناول معاني لفظ (الفساد) في سياق هذه الآيات وما يتعلّق به من مرويات وأخبار النزول في التفاسير المختلفة، خاصة منها: جامع البيان، للطبريّ، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، والمحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، وروح المعاني، للألوسيّ.

[2] – محاسن التأويل، 1/ 61.

[3] – تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 3/ 183.

ثالثًا: أن يتحدّثَ القرآنُ الكريمُ عن أسباب الآفة دون التّصريح بها: وهو ما يلاحظ في حديث القرآن عن آفة الحسد، وذلك في أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من شرّ الحاسد، فسياق الآية يفيدُ أنّ سبب الآفة هو شرٌّ كامنٌ في نفس الحاسد، والذي يجلّي هذا الشّرّ هو دلالة الحسد على تمنّي الحاسد زوال النّعمة عن المنعم عليه[1].

ويظهرُ من سياق الآية أنّ ذكر الآفة يدلُّ على آثارها، فيُغني ذلك عن ذكرها، لأنّ الحاسد يَرغبُ في زوال تلك النّعم عن المنعَمِ عليه بها.

رابعًا: أن يَتَضمّنَ القرآنُ الكريمُ إشارةً إلى آثار الآفة دون التّصريح بها: كما تجدهُ في حديث القرآن عن توقّي الشّحّ عند الصّحابة رضي الله عنهم فقال سبحانه : (**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (9))**[الحشر]**، فإنّ دلالة الخلاف تفيدُ أنّ الآفة المشار إليها هي الشُّحّ والبخلُ الذي يحول دون فلاح صاحبها.

قال الفخر الرازي: " واعلَم أنَّ الفَرقَ بين الشُّحّ والبُخل هُو أنَّ البُخلَ نفسُ المنعِ، والشُّحَّ هُو الحالةُ النَّفسانيةُ التي تقتَضي ذلكَ المنعَ، فلَمَّا كانَ الشُّحُّ مِن صِفاتِ النّفسِ، لا جَرَم قَال تعالى: (**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) الظَّافرُون بما أَرَادُوا... "[2].

وقال ابن عاشور:"والشّحّ بضَمّ الشّين وكسرها: غريزةٌ في النّفس بِمنعِ مَا هُو لَهَا، وهُو قريبٌ مِن معنى البُخلِ. وقال الطّيبيّ: الفرقُ بين الشّحّ والبُخل عسيرٌ جدًّا وقد أشار في (الكشّاف) إلى الفرق بينهما بما يقتَضِي أنَّ البُخل أثرُ الشُّحِّ وهُو أن يَمنَعَ أحدٌ مَا يُرادُ منه بذلُهُ، وقد قال تعالى: (**وأُحضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ**)**[النّساء: 128]** أي: جعل الشّحّ حاضرًا معهَا لا يُفارِقُها، وَأُضِيفَ في هذه الآية إلى النَّفسِ لِذلكَ، فَهُو غريزةٌ لا تَسلَمُ منها نفسٌ...

ولكن النُّفوس تتفاوتُ في هذا المقدار فإذا غَلَبَ عَليهَا بمنعِ المعرُوفِ والخيرِ فذلكَ مذمُومٌ، ويتفاوتُ ذَمُّهُ بتفاوُتِ ما يمنعُهُ...

فمن وَقَى شُحَّ نَفسِهِ، أي: وَقَى مِن أن يَكُون الشُّحُّ المذمُومُ خُلُقًا لَهُ، لأنّهُ إذا وُقِيَ هذا الخُلق سَلِمَ مِن كُلّ مَواقِعِ ذَمِّهِ. فإن وُقِيَ مِن بعضِهِ كانَ لَهُ مِن الفَلاح بمقدَارِ مَا وُقِيَهُ..."[3].

---

[1]- ينظر قريبا من هذا المعنى في: مجالس التذكير، ص 491- 492.

[2]- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، 29/ 508.

[3] - التحرير والتنوير، لابن عاشور، 28/ 94.

خامسًا: أن يتحدّثَ القرآنُ الكريمُ عن الآفة ضمن مجموعة من الآفات: كالذي نجدُهُ في حديث القرآن عن الغيبة والتجسّس في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)**)**[الحجرات]**. وكذكر تلك الآفات الموبقات في قوله تعالى:(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(91)**)) **[المائدة]**. والمقصود في هذين المثالين أنّ القرآن لا يقتصرُ على ذكر آفة واحدة، بل يذكر محذرًا من آفاتٍ عدّة متلازمة، أو بعضها يكون سببًا لأخرى، أو أنّ بعضها ملازمٌ لبعضٍ.

سادسًا: أن يتحدّثَ القرآنُ الكريمُ عن الآفة مُتدَرّجًا في استقباحها ثمّ تحريمها: كحديث القرآن عن الخمر في الآيات الثّلاث، ويوضّحُ هذا الأسلوب ويجلّيه أكثر ما وردَ في الأثر في ترتيب نزول الآية، وهو ما أخرجهُ أبو عبيد القاسم بن سلام بسنده عن أبي مَيسَرَة قَالَ: **قَالَ عُمَرُ: " اللَّهُمَّ بَيِّن لَنَا فِي الخمرِ، فَنَزَلَت:(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)[النساء: 43] فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّن لَنَا فِي الخمرِ، فَنَزَلَت: (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)[البقرة: 219] ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّن لَنَا فِي الخمرِ، فَنَزَلَت: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ)[المائدة: 90] الآيَةَ، (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[المائدة: 91]، فَقَالَ عُمَرُ: قَدِ انتَهَيْنَا إِنَّمَا تُذهِبُ المَالَ وَتُذهِبُ العَقلَ)**[1].

وقد نقل الرازي عن القفال قولَهُ رحمه الله:"والحكمةُ في وُقُوع التّحريم على هذا التّرتيب أنّ الله تعالى عَلِمَ أنَّ القَومَ قد كانُوا أَلِفُوا شُربَ الخمر، وكان انتفاعُهُم بذلك كثيرًا، فَعَلِمَ أنّهُ لو مَنَعهُم دفعةً واحدةً لشقَّ ذلكَ عليهم، فَلا جَرَمَ استَعمَلَ في التّحريم هَذَا التّدريج، وهذا الرّفق، – ثمّ ذكر قول بعض النّاسِ بأنّ الله حرّم الخمرَ والميسرَ بهذه الآية– ثم نزل قوله تعالى: (**لا تَقرَبُواْ الصَّلَاةَ وَأنتُم سُكَارَى**) فاقتضى ذلك تحريم شرب الخمر وقت الصّلاة، لأنّ شارب الخمر لا يمكنُهُ أن يُصلّيَ إلّا مع السُّكر، فكان المنعُ من ذلكَ منعًا مِن الشُّربِ ضمنًا، ثمَّ نزلت آيةُ المائدة فكانت في غاية القُوّة في التّحريم..."[2].

[1] – الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسّنن، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، ص 249 (برقم: 452).
[2] – التفسير الكبير، 6/ 396.

وقال الفخر الرازي:" قال تعالى: (**فهل أنتم منتهون**) رُويَ أنّهُ لما نَزَلَ قولُهُ تعالى: (**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى(43))[النساء]** قال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: (**اللّهمّ بيّن لَنَا في الخمر بيانًا شافيًا، فلمَّا نَزَلت هذه الآيةُ، قال عمرُ: انتَهَينَا يَا رَبِّ**).

واعلم أنّ هذا وإن كان استفهامًا في الظّاهر إلا أنّ المراد منه هو النّهي في الحقيقة، وإنّما حسن هذا المجاز لأنه تعالى ذم هذه الأفعال وأظهر قبحها للمخاطب، فلما استفهم بعد ذلك عن تركها لم يقدر المخاطب إلا على الإقرار بالترك، فكأنه قيل له: أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر فصار قوله فهل أنتم منتهون جاريا مجرى تنصيص الله تعالى على وجوب الانتهاء مقرونا بإقرار المكلف بوجوب الانتهاء"[1].

سابعًا: أن يتحدّث القرآن الكريم عن مجموعة من الآفات مُرتّبةً حَسب خُطُورَتها وقبح آثارها: كما في قوله تعالى: (**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(33))[الأعراف]**.

يقول الفخر الرازي: " اعلَم أنّهُ تَعَالى لمَّا بيَّنَ في الآية الأُولى أنَّ الذي حرّمُوهُ ليسَ بحرامٍ بيَّنَ في هذه الآية أنواعَ المحرّمات فَحرَّمَ **أَوَّلًا** الفواحشَ **وثانيًا** الإثمَ[2]... **النوع الثالث:** من المحرمات قوله: (**والبَغيَ بِغَيرِ الحَقِّ**) فنقول: أما الذين قالوا: المراد بالفواحش جميع الكبائر وبالإثم جميع الذنوب...**والنوع الرابع:** من المحرّمات قولُهُ تعالى: (**وَأَن**

[1] – التفسير الكبير، 12/ 425

[2] قال الفخر الرازي عقب ذكر الاثم في الفرق بينه وبين الفواحش: " واختلفوا في الفرق بينهما على وجوه: الأول: إنّ الفواحش عبارة عن الكبائر لأنّه قد تَفَاحش قُبحُهَا أي: تَزَايَدَ، والإثم عبارةٌ عن الصّغائر، فكان معنى الآية: أنَّهُ حرَّمَ الكبائرَ والصّغائرَ وَطَعَنَ القَاضي فيه فقال هذا يقتضي أن يقال: الزنا والسرقة والكفر ليس بإثم وهو بعيد.

القول الثاني: إنَّ الفَاحشة اسمٌ لا يجبُ فيه الحدُّ والإثم اسمٌ لما يَجِبُ فيه الحدُّ وهذا وإن كانَ مُغايرًا للأوَّلِ إلَّا أنَّهُ قريبٌ منهُ والسُّؤالُ فيه ما تَقدَّمَ.

والقول الثالث: إن الفاحشة اسم للكبيرة والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرا أو صغيرا. والفائدة فيه: أنه تعالى لما حرم الكبيرة أردفها بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم أن التحريم مقصود على الكبيرة وعلى هذا القول اختيار القاضي.

والقول الرابع: إن الفاحشة وإن كانت بحسب أصل اللغة اسما لكل ما تفاحش وتزايد في أمر من الأمور إلا أنه في العرف مخصوص بالزيادة. والدليل عليه أنه تعالى قال في الزنا: (**إِنَّهُ كان فاحشة**)[الإسراء: 32] ولأن لفظ (الفاحشة) إذا أطلق لم يفهم منه إلا ذلك وإذا قيل فلان فحاش: فهم أنه يشتم الناس بألفاظ الوقاع فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا فقط.

إذا ثبت هذا فنقول: في قوله: (**مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ**) على هذا التفسير وجهان: **الأول:** يريد سرّ الزنا وهو الذي يقع على سبيل العشق والمحبة وما ظهر منها بأن يقع علانية. **والثاني:** أن يراد بما ظهر من الزنا الملاسمة والمعانقة وما بطن الدخول. وأما الإثم فيجب تخصيصه بالخمر لأنه تعالى قال في صفة الخمر:(**وإثمهُمَا أَكبَرُ مِن نَفعِهِمَا**)**[البقرة: 219]** وبهذا التقدير فإنه يظهر الفرق بين اللفظين". التفسير الكبير، 14/ 232.

تُشْرِكُواْ بْاللهِ مَا لَمْ يُنزّلْ بِهِ سُلْطَانًا) ...**والنوع الخامس:** من المحرمات المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ...

ثمّ أوردَ الرازي بعد عرض المعاني والأقوال في تفسير المحرّمات الخمس سُؤالين، وكان **الأوَّل حول** كلمة (إنّما) التي تفيدُ الحصرَ، قال: فقولُهُ: (**إنّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ**) كذا وكذا يفيدُ الحصرَ والمحرّمات غيرُ محصورة في هذه الأشياء.

والجواب: إن قُلنا: الفاحشةُ محمولة على مطلق الكبائر والإثم على مُطلقِ الذّنب دَخَلَ كُلُّ الذُّنُوب فيه، وإن حمَلنَا الفَاحشةَ على الزّنا والإثمَ على الخمر قُلنا: الجنايات محصورة في خمسة أنواع:

أحدها: الجنايات على الأنساب: وهي إنّما تحصل بالزّنا وهي المراد بقوله: (**إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ**).

وثانيها:الجنايات على العقول: وهي شرب الخمر وإليها الإشارة بقوله: (**الإثم**).

وثالثها: الجنايات على الأعراض، ورابعها: الجنايات على النُّفُوس وعلى الأموال وإليهما الإشارة بقوله: (**والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ**).

وخامسها: الجنايات على الأديان: وهي من وجهين: **أحدها:** الطّعنُ في توحيد الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: (**وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ**)، **وثانيها:** القولُ في دين الله مِن غير معرفةٍ وإليه الإشارة بقوله: (**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**).

فلمَّا كانت أُصُول الجنايَات هي هذه الأشياء وكانت البَواقي كالفُرُوع والتّوابع لا جَرَمَ جَعلَ تعَالى ذِكرَهَا جَارِيًا مَجرى ذِكرِ الكُلِّ فَأدخَلَ فيها كلمةً (إنَّمَا) المفيدة للحصر"[1].

ثامنًا: أن يتحدّثَ القرآنُ الكريمُ عن الآفات حفاظًا على مصالح النّاس العُليا، وبيانا لتعلّق الآفات بعضها ببعضٍ: ويُلمسُ ذلك في حديثه عن مجموعة من الآفات القوليّة والفعليّة في سُورة الحُجُرات التي تُهدّدُ أخوّة المؤمنين، وتضيّع مصالحهم الدينية والدّنيوية، وفيما بينهم وغيرهم، كآفات السّخرية والتّجسّس والغيبة وسوء الظّنّ وما ينتجُ عن ذلك من صُوَر التّفكّك المجتمعيّ، فقال سبحانهُ: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)**)**[الحجرات]**، فإنّهُ تعالى بعد أن ذكرَ تلك الآفات أعقبهُ بما يُشعِرُ ترغيبًا في التّوبة إلى الله والإقلاع عنها وذلك قوله تعالى:(**إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**) لِيُفيدَ أنّ ذلك هو طريق الحفاظ على رباط الأخوة

[1]- التفسير الكبير، للرازي، 14/ 232- 233.

والتّعارف بين النّاس جميعًا، وما يستدعيه من المصالح والمنافع الدّينية والدّنيوية، كالتّزاوج والتّناسل والتّقارب والتّوارث وغيرها، وهم متفرّقون في الأمصار والأقطار، فهذا المعنى من مَشمُول قوله تعالى بعد تلك الآيات: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))[الحجرات]**[1].

ومِن جانبٍ آخر فإنّ البحث في ترتيب تلك الآفات ذكرًا ونهيًا عنها، يُفيدُ أنّ بعضها يُنتجُ بعضًا، أو أنّ بعضَهَا مِهَادٌ لبعضٍ، فسيقتْ بذلك الترتيب، وهو سياقٌ جامعٌ بين آفاتٍ قلبيةٍ وقوليّةٍ وفعليّةٍ.

قال الإمام ابن عطية الأندلسيّ: "هذه الآيات والتي بعدها نزلت في خُلُقِ أهل الجاهليّة، وذلك لأنّهم كانوا يجرُّون مع الشّهوات نُفُوسَهُم لم يُقَوِّمْهُم أمرٌ مِن الله ولا نهيٌ، فكان الرّجلُ يسطُو ويَهمزُ ويَلمزُ ويَنبُزُ بالألقاب ويُظُنُّ الظُّنُون فَيتكلَّمُ بها، ويَغتابُ ويفتخرُ بنسبِهِ إلى غير ذلك مِن أخلاقِ النُّفُوس البَطَّالة. **فَنَزلَت هذه الآيةُ تأديبًا لأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم**. وقد ذكرَ بعضُ النَّاس لهذه الآيات أسبابًا. ...فذكر بعضَهَا ابنُ عطية ...-

وواصل ابن عطيّة إلى أن قال: "والقويُّ عندي أنّ هذه الآية نَزَلت تقويمًا كسائرِ أمرِ الشَّرع ولَو تَتبَّعت الأسبابَ لكانت أكثرَ مِن أن تُحصى"[2].

المطلب الثالث: تنزيلُ واستثمارُ أساليبِ القُرآن في الحديث عن الآفات الاجتماعيّة: الحقُّ أنّ الكلام في هذا الجانب من جوانب الموضوع إنّما هو تتميمٌ لفائدة ما مضى من الأساليب القرآنية في الحديث عن الآفات توصيفًا وتحليلاً وتمثيلاً، غير أنّ عنوان الورقة البحثية يقتضي مزيدَ إيضاحٍ وبيانٍ لخطر الآفات، وتلازمها فيما بينها، واستدعاء بعضها لبعض، **وشرح فكرة التنزيل[3] والاستثمار في هذا المطلب**، وهو ما يمكنُ تصويرُهُ من جملةٍ من خلال مجموعة من النّقاط التي دلّت عليها الأساليب السابقة منفردة أو مجتمعة مع التمثيل بآفة الحسد.

أوّلا: شَرحُ فكرة التّنزيل والاستثمار لأساليبِ القُرآن في الحديث عن الآفات الاجتماعيّة: إنّ القرآن الكريم إذْ يتحدّثُ عن الآفات الاجتماعية والجرائم والسّلوكيات السّلبيّة والأحوال المجتمعيّة المرضيّة إخبارًا لا شكّ في صِدقِهِ، وهو مِن محكم الكتاب، فإنّ أساليبَهُ تُعطي استمرار تلك الآفات في مجتمعاتنا، وهو – بذلك – مُنَبِّهٌ العقولَ على

[1]- تنظر بعض هذه المعاني في: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي، 5/ 82- 83.

[2] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، 5/ 149.

[3] – قصدتُ بالتّنزيل هنا معنى الانطلاق من نصّ القرآن إلى واقع النّاس قصد تصويره وبيان حلول العلل والآفات فيها اقتداءً بصنيع ابن باديس في تفسيره" مجالس التذكير"، فقد الذي كان يتناول تلك القضايا المجتمعية والأحوال الواقعية بصورة أبرز تحت عناصر درسه التفسيريّ، كعنصر: "تنزيل"، وعنصر" تطبيق" وعنصر "تمثيل"... تنظر مواضع من تفسيره، في الصفحات: 119، 146، 155، 167، 173، 196، 218، 298، 323، 325، 328، 338، 347، 352، 363.

ضرورة استثمار طريقة القرآن في العلاج، مادامت الآفة باقية بقاء أسبابها، وأنّها ممّا لا يزالُ يَتَسَرَّبُ إلى المجتمعات، **وعليه فإنّ الاستفادة والاستثمار** لا بدَّ لهُما من حُصُولٍ.

- فيُستفادُ من أساليب القرآن الكريم وتُستثمرُ في تناول الآفاتِ تشخيصًا، والتّصدّي لها علاجًا وحدًّا، ولآثارها دفعًا وصدًّا، كاستثمارِ طريقةِ التّدرّجِ والتّمرحُل في العلاج، فإنّ مَن ابتُليَ اليوم بالإدمان على آفة المسكرات يُعينُهُ إلى حدٍّ بعيدٍ تدرُّجُهُ في التّخلّي عن ذلك.
- وكذلك يُستفادُ من طريق التّدرّج في العلاج، فَمَن ابتُليَ- مثلاً- ببعض الآفات كغيبة النّاس التي تستدعي التّجسُّسَ عليهم والتَّحسُّسَ وسُوءَ الظَّنّ بهم، فإنّهُ يُعينُهُ تَدَرُّجُهُ مَع نفسِهِ في تركِ دواعي الغيبة والتّخلّصِ من من آثار الآفات الأخرى.
- ويُستفادُ من طريقة القرآن في معالجة الآفات والتّرفّق بأصحابها، كَمَا يُدرَكُ ذَلكَ بِتَدبُّرِ معاني خَتمِ التّحذير والتّنفير عن مجموعة من الآفات في سورة الحجرات بما يشبِهُ التّرغيب في التّوبة إلى الله ورَجاءِ رحمته: (...**إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ(12))[الحجرات]**.
- ويُستفادُ مِن أسلوبِ القرآن في معالجة الآفات أيضًا التّنبيه على الأخطر فالخطير، والأكثر تَعَدِّيًا وفُشُوًّا ممّا كان دُونَهُ، أَخذًا مِن تنبيه القرآن على حماية المصالح العُليَا والمنافِعِ المتعدّية .
- ويمكنُ استثمارُ طريقة القرآن في أسلوبِ التّصدّي للآفات، فإنّ منها ما لايحتاجُ إلى ذكر أسبابه، بل يَستدعي الوقوف على الآفة وبيان آثارها الوخيمة على الفرد والمجتمع. وكلُّ تلك الآفات المذكورة أو المشار إليها، وأنّ علاجها ودفعها في ضوءِ طريقة القرآن تفيدُهُ أو تُشِيرُ إليها الصّيغ التّعبيريّة من وجوه مخاطبات القرآن الكريم.

فآفاتُ **السّخرية واللّمز والتّنابز وسُوء الظّنّ والتّجسّس والغيبة** كلّها ورد علاجها بصيغة النّهي المفيد لاستمراه، كصيغ النّهي والأمر المفيدة للتّرك في: (**لا يَسْخَرْ قومٌ مِن قَومٍ**)، (**ولا تَلمِزُوا**)، (**ولا تَنابزُوا**)، (**اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ**)، (**وَلَا تجَسَّسُواْ**)، (**ولَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**)، ويقتضي ذلك علاج تلك الآفات وفق الطريقة المستنبطة من المعاني الكلّية والجزئيّة.

- وكذلك يستفادُ من طريقة القرآن في التّرفّق بذوي الآفات، وإشعارهم بالأخوّة ومقتضياتها، والحرص على مصالحهم الدينية والدّنيوية، فيُؤخذُ هذا – مثلاً- من أسلوب القرآن في مخاطبة هؤلاء في سورة الحجرات، ولم يكن إلاّ بوصف الإيمان، مع تصدير هذه المقاصد بما يُفيدُ ضرورة الحفاظ على الأُخوّة الإيمانيّة كما في قوله تعالى: (**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ...**) **وقوله تعالى بُعيدها:** (... **بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...**)، **وكذلك قوله تعالى:** (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ...)، وقوله تعالى بُعيدها: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ...)[الحجرات].

وممّا يسوغُ الاستشهادُ به من أساليب القرآن في التّرفّق بأصحاب الآفات بأنواعها – العقدية والعبادية والأخلاقية السّلوكيّة- أسلوب القرآن في ختام سورة التوبة التي فضحت المنافقين، وكشفت عن أمراضهم وعللهم، وأبانت عن آفاتهم وتأثيرها في تصرفاتهم ومواقفهم القولية والفعلية، ومع ذلك فقد خُتمت السورة بقوله تعالى: (**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)**)[التوبة].

وهذه الفكرة مُستوحاةٌ مِن أَحَدِ وُجُوهِ مُنَاسبةِ ختام السّورة عند الإمام ابن عاشور، وذلك قوله: "كانت هذه السُّورة سُورةَ شدّةٍ وغِلظةٍ على المشركين وأهلِ الكتاب والمنافقين مِن أهل المدينة ومِن الأعراب، وأمرًا للمُؤمنينَ بالجهاد، وإنحاءً على المقصّرين في شأنه.

وتخلّلَ ذلك تنويهٌ بالمتّصفين بضِدّ ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نَصَرُوا واتَّبعُوا الرّسُول في ساعة العُسرَة.

فجاءت خاتمةُ هذه السّورة آيتين بتذكيرهم بالمِنّة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بصفاته الجامعة للكمال.

ومِن أخصّها حرصُهُ على هُدَاهم، ورَغبتُهُ في إيمانهم ودُخُولهم في جامعة الإسلام ليكونَ رَؤُوفًا رحيمًا بهم لِيَعلمُوا أنَّ ما لَقِيَهُ المعرضُون عن الإسلام مِن الإغلاظِ عليهم بالقَولِ والفِعلِ ما هو إلا استصلاحٌ لحالهم. وهذا مِن مَظاهِرِ الرّحمة التي جَعَلَهَا اللهُ تعالى مُقارِنَةً لِبعثةِ رَسُوله صلى الله عليه وسلم بقوله: (**وَمآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعالَمِينَ (107)**)**[الأنبياء]** ، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنُهُ أن يُزيلَ الحَرَجَ مِن قُلُوبِ الفِرَقِ التي نَزَلَت فيهم آيَات الشّدّة وعُومِلُوا بالغِلظَة تعقيبًا للشّدّة بالرّفق وللغلظة بالرّحمة، وكذلك عادة القرآن. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها. فالجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا. وفي وقوعها آخرَ السُّورة ما يُكسِبُهَا معنى التّذييل والخُلاصة "[1].

ثانيًا: التّمثيلُ بآفة الحسد: وأمّا التّمثيلُ في التّنزيل بآفة الحَسَد[2] وما يتعلّقُ به من مَقَاصدَ هُنَا، فيبدأُ بالتنبيه على أنّ الحسد **أوّل معصية عُصي الله عزّ وجلّ بها، يقولُ ابنُ جُزي الكلبيّ الأندلسيّ:**" ...وقال بعضُ العلماء:

[1]- التحرير والتنوير، 11/ 70.

[2]- تناولت الطالبة نعيمة عبد الله البرش آفة الحسَد ضمن المبحث الخامس من الفصل الثاني:(آفاتٌ وآثارها في القرآن الكريم) في رسالتها: (آفاتُ النّفس كما يُصَوّرها القرآن الكريم – دراسةموضوعية –)، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، بإشراف الدكتور رياض محمود قاسم، في قسم التفسير- كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة (1429 هـ/

الحسدُ أوّلُ معصية عُصيَ اللهُ بها في السّماء والأرض، أمّا في السّماء فَحَسَدُ إبليس لآدم، وأمّا في الأرض فَقتلُ قابيل لأخيه هابيل بسبب الحسد"[1].

ومعلومٌ أنّ أوّل من خُوطبَ بهذه الطريقة العلاجيّة، والأسلوب الوقائيّ هو سيّدُ البشر محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأجل أنّ هذه الآفة لا تكادُ تسلمُ منها نفسُ أو مجتمعٌ آثرتُ التمثيلَ بها، تنبيها على بقائها، بل شيوعها، وتنبيها على أنّ الاختلالات السُّلوكيّة، والاضطرابات المجتمعية، والانحرافات التّديّنيّة كان سببها الحسد ولوازمه، وهو ما نجدُهُ واضحًا في حديث **الزُّبير بن العَوَّام أَنّ النَّبيَّ** صلى الله عليه وسلم **قَالَ: (دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبلَكُم: الحَسَدُ وَالبَغضاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لا أَقولُ تَحلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِن تَحلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَا تَدخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤمِنُوا، وَلَا تُؤمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُم بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُم؟ أَفشُوا السَّلَامَ بَينَكُمْ)**[2].

فآفة الحسد هي: "تمنّي زوال النّعمة عن المنعم عليه" وهي مراتبٌ متفاوتة شرًّا وخطرًا[3] فيحصُلُ بذلك الرّغبة في انتقال النّعمة إلى الحاسد، وهو اختلالٌ تُنتِجُهُ العِللُ القلبية، فهو إذًا فعلٌ قَلبيٌّ لا يُرى ولا يُبصرُ إلاّ من خلال آثاره في المحسودِ.

وهي حقيقةٌ غيرُ منكرة عند جمهور العُقلاء، فقد أمر الله تعالى نبيّهُ صلى الله عليه وسلم بالتّعوّذ من شرّ الحاسد **(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ (5))[الفلق]**.

ثمّ إنّ هذا الأمر الإلهيّ لسيّد البشر محمد صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة بالله من شرّ الحاسد يفيد جملة من المعاني الكلّيّة المتّصلة بالأفراد والمجتمعات إيجابًا أو سلبًا.

– أنّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام المأمور بذلك لا يسلمُ من الحسد وآثاره، وهو أفضلُ البشر وسيّدُ وَلَد آدم وأكملُ النّاس خِلقةً وخُلُقًا، فغيرهُ أولى بأن تصيبه هذه الآفة وتلحقه آثارها.

2008م)، **وسَيَجِدُ النّاظر في العملين اختلافًا في طريقة التّناول وتمايزًا بيّنا في الأفكار المطروحة، والنّصوص الموظّفة، وقد يكون مرجعُ ذلك إلى اختلاف تساؤلات كلّ منهما وأهدافهما.**

[1]– التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 527.

[2] – أخرجه الترمذي في جامعه (سنن الترمذي)، في أبواب صفة القِيامة وَالرّقائق وَالورَع عن رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، باب (56)، وحسّنهُ الألباني في صحيح سنن الترمذي، 2/ 607.

[3] – ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 527.

– أنّ الأمر الإلهيّ للنّبيّ عليه الصلاة والسلام بالتعوّذ من شرّ الحاسد يدلُّ على أنّه بشرٌ يُصيبُهُ ما يُصيبُ البَشَرَ من أنواع الأمراض والآفات، ولا يستطيع دفعَ الشّرّ والضّرّ عن نفسه إلاّ بالطريق الذي شرعه الله لهُ سبحانه للعلاج ودفع الآفات.

7– أمّا عن علاج القرآن الكريم لآفة الحسد فهو بيّنٌ في سورة الفلق، وهو ما يمكنُ إبرازُهُ في النّقاط الآتية:

1– الاستعاذة بالله من شرّ الحسد والحاسد: فالآية الكريمة تفيدُ بأنّ هذا العلاج اختيارٌ إلهيّ محضٌ، وهو طلبُ العوذ من الله تعالى، وهو عامٌّ غيرٌ مقصورٍ على لفظ التّعوّذ وتكريره، بل يتعدّى إلى كلّ قولٍ يستدعيه طلب اللّجوء إلى الله، الذي خلق الخير والشّرّ. وقد وَرَدَ النّهيُ عن الحَسَدِ بِصِيغةِ: (**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2)** ... **وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)**)...، وهي صيغة مُشعِرةٌ بدوامِ الآفة، وأنّ تشريع الاستعاذة منه ومن أهله تشريعٌ عامٌّ في زمان ومكانٍ.

وقد تناول الإمام ابن القيّم ضمن بدائع تفسيره لسورة الفلق عشرة أسباب يندفعُ بها شرّ الحاسد عن المحسود، وذكر أوّلَها: التَّعَوُّذ بالله من شرّه والتّحصّن به واللّجأ إليه، ثمّ قال: " " وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته، عليم بما يستعيذ منه، والسّمعُ هنا المرادُ به: سمع الإجابة، لا السّمع العامّ، فهو مثل قوله تعالى: (سمع الله لمن حمدهُ)، وقول الخليل صلى الله عليه وسلم : (**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ(39))[إبراهيم]**..."[1].

2– النّهيّ عن أسباب الحسد: كمدِّ العَين إلى ما أنعمَ الله به على الغير، قال ابن باديس في سياق معاني سورة الفلق:"أعظم ما يُنمّي الحسدَ ويُغذِّيهِ امتدادُ العَينِ إلى ما مَتَّعَ الله به عبادَهُ مِن متاعِ المالِ والبنينِ ونعمةِ العافيةِ والعلمِ والجاهِ والحُكمِ.

وقد نهى الله نبيَّهُ عن مدِّ العَين إلى ما عند الغير فقال: (**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى(131))[طه]**.

وفي هذه الآية مع النّهي إرشاد إلى علاج الحسد، فإنَّ الحَسَدَ مرضٌ نفسانيٌّ مُعضِلٌ، ولكنّهُ كغيره من الأَمراض النّفسيّة يُعالَجُ..."[2].

قال الثّعالبيّ الجزائريّ في ختام تفسيره سورة الفلق: " ...وقال الحسين بن فضيل: ذكر الله تعالى الشّرور في هذه السورة ثمّ ختمها بالحسد ليعلم أنّهُ أخسُّ الطّبائع"[3]

[1] – بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيّم الجوزيّة، جمعه ووثّق نصوصه وخرّج أحاديثه يسري السّيّد محمد، 5/ 425.
[2] – مجالس التذكير، ص 491– 492.
[3] – الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي، 4/ 690.

ومن جميل عبارات ابن حبان البستي في الحديث عن الحسد وسببه وآثاره قوله: " وَمِن الحَسَد يتولَّدُ الحقدُ، والحقدُ أصلُ الشّرّ، وَمن أَضمَرَ الشَّرَّ في قَلبِهِ أَنبَتَ لَهُ نَباتًا مُرًّا مَذَاقُهُ، نماؤُهُ الغَيظُ وثمرتُهُ النَّدَمُ... ولا يكادُ يوجدُ الحسَدُ إلَّا لمن عَظُمَت نِعمةُ اللَّهِ عَلَيهِ فَكُلَّمَا أَتحفَهُ اللهُ بترداد النّعم ازدَادَ الحاسدُون لَهُ بالمكرُوهِ والنّقم"[1].

2- بيان آفات أخرى تلازمُ آفة الحسد والتّحذير منها من خلال نماذج حاسدة: قال ابن باديس: "وإنما ينشأ الحسدُ من العُجب وحُبِّ الذّات، فَتُسوِّلُ لَهُ نفسُهُ أنّ غيرَهُ ليس أهلاً لِنعَم الله، وكفى بهذا معاداة للمنعم.

والحسدُ شرٌّ تُلازمُهُ شُرورٌ: العجبُ، والاحتقارُ، والكِبرُ. وقد جمعَ إبليسُ هذه الشُّرور كلّها: حَسَدَ آدَمَ عجبًا بنفسه فقال: (**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**)، ورآهُ لا يستحقُّ السّجُود احتقارًا له، فقال: (**أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ**)؟! **[الإسراء: 62]**، ثم تَكبَّرَ ولم يَسجُد ورَضيَ باللَّعنة والخِزي، ولا أشنعَ مِن صِفةٍ يكونُ إبليسُ فيهَا إمامًا!!

والحسدُ شرٌّ على صاحبه قبل غيره، لأنه يأكل قلبه، ويؤرق جفنه، ويقضّ مضجعه ولا يكون شرًّا على غيره، إلاّ إذا ظَهَرَت آثارُهُ بأن كان قادرًا على الإضرار، أو ساعيًا فيه، ولهذا قال تعالى: (إِذَا حَسَدَ) والمتمنّي للشّيء لا يمنعُهُ مِن إتيانِهِ إلاّ العجز.

وأعظم ما يُنمّي الحسدَ ويُغذِّيهِ امتدادُ العَينِ إلى ما مَتَّعَ الله به عبادَهُ مِن متاعِ المالِ والبنينِ ونعمةِ العافيةِ والعلمِ والجاهِ والحُكمِ"[2].

قال ابن حبّان البُستي: "الواجبُ على العاقلِ مجانبة الحَسَد على الأحوال كلّها، فإنَّ أَهوَنَ خِصَال الحَسَد هُو ترك الرّضا بالقضاء، وإرادة ضِدِّ مَا حَكَمَ اللَّهُ جلَّ وعلَا لِعبادِهِ، ثمَّ انطواء الضّمير على إرادةِ زَوَالِ النِّعَم عَن المسلِمِ. والحاسِدُ لا تهدَأُ رُوحُهُ ولا يَستريحُ بدنُهُ إلَّا عِندِ رُؤيَةِ زوالِ النِّعمة عَن أخيهِ وَهَيهاتَ أن يُسَاعِدَ القَضاءُ مَا لِلحُسَّادِ في الأَحشاءِ..."[3].

ومن تقريراته في الحسد وآثاره على الحسد وغيره قوله: "قال أَبُو حاتم رَضِيَ اللَّه عنه بئس الشعار للمرء الحسد لأنّهُ يورّثُ الكَمَد ويُورّثُ الحُزنَ وهُو داءٌ لا شِفاءَ لَهُ

والحاسدُ إذا رأى بأخيه نعمةً بَهَتَ، وإن رأى بِهِ عثرَةً شَمَتَ، ودَليلُ مَا في قَلبِهِ كمينٌ على وجهه مبينٌ، ومَا رأيتُ حَاسدًا سَالَمَ أَحَدًا.

[1] – روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البُستي، ص 134.

[2]– مجالس التذكير، ص 491- 492.

[3]– روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للإمام أبي حاتم محمد بن حبان البُستي، ص 133.

والحسدُ داعيةٌ إلى النَّكَد أَلا تَرَى إبليس حَسَدَ آدَمَ فَكَانَ حَسدُهُ نكدًا على نفسِهِ، فَصَار لَعِينًا بعدَمَا كانَ مَكِينًا ويسهل على المرء ترضي كل ساخط في الدّنيا حتّى يرضى إلا الحسود فإنّهُ لا يُرضيه إلا زَوَال النّعمة التي حَسَدَ مِن أَجلِهَا..."[1].

هذا ما تيسّر بحثه وعرضه في موضوع هذه الورقة البحثية، وقد حرصتُ على تقريب أفكار البحث ما استطعتُ، والتزمتُ الاختصار والتركيز – قدر الإمكان - على أهمّ جوانب الموضوع، وتَقَيُّدًا بشُروط الورقة البحثية في الملتقى، وانضباطًا بحدوده وإطاره وأهدافه، وإلاّ فالموضوع في حاجة إلى مزيد بحثٍ، وتوسّعٍ في كثير من جوانبه، وطلبٍ لمقاصد سامية فيه.

وسأرصُدُ في الخاتمة أهمّ النتائج والأفكار والملاحظ عسى أن تزيدَ الفكرةَ المبحوثةَ وُضُوحًا، وتجمع أطرافها نظامًا، ولعلّ النّظر في البحث مرّات ينتجُ أفكارًا ، ويُنضِجُ أُخرى.

الخـاتمة

بعد هذا الرّحلة المتواضعة مع آيات القرآن الكريم حول الآفات المختلفة وأسبابها وآثارها وشيء من أساليب وطرق علاجها، يمكنُ تسجيلُ جملة من النتائج فيما يلي:

1- تحدّث القرآن الكريم عن الآفات في مناسبات وسياقات مختلفة، ولأغراض متنوعة، وبأساليب حكيمة.

2- أفاد البحث أنّ لفظ (الآفة) لم يرد في القرآن، بل وردَ بمعناهُ في ألفاظ البَور والفساد والهلاك والمرض، كشفَ عن ذلك المفسرون وعلماء القرآن.

3- يؤَكّدُ البحثُ أنّ المفسّرين كان لهم الحظّ الوافر، والجهد الخصيب في العناية بالآفات موضوعًا وأساليب ومنهجيات علاجٍ، وأنّهُ موضوع قديم يتجدّدُ، ولن يكون موضوعًا جديدًا حكرًا على الباحثين في علوم التربية والسّلوك والاجتماع.

4- أفاد البحثُ أنّ الآفات هي ما يُفسِدُ ويُهلكُ، ويلحق الضرر والهلاك، ويجلبُ العيب والمرض، وأنّها واقعة على المعنويات والحسّيات، كما تقع على بني الإنسان، والحيوان، والنّبات.

[1]- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للإمام أبي حاتم محمد بن حبان البُستي، ص 137.

5- كانت الآيات الدّالة على الآفات هي آيات التّحذير والنّهي عنالتقصير في حقّ الله، وفي حقوق العباد، وآيات الانحراف الأخلاقيّ والسّلوكيّ، وآيات الجرائم والعقوبات والحدود، كما دلّت عليها بمفهوم الخلاف الآيات الواردة في الحثّ على مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

6- كانت الآفات التي تحدّث عنها القرآن الكريم شاملة لأبواب العقائد والعبادات والأخلاق والسّلوك الإنسانيّ.

7- دلّ حديث القرآن عن تلك الآفات التي مَثّلنَا بها أنّها باقية في الأفراد والمجتمعات والشُّعوب، بل مرتبطة بآفاتٍ أخرى، وجَبَ علاجُها ودفعُها في ضوء العلاج القرآنيّ.

8- أفاد البحث بأبرز أساليب القرآن في حديثه عن الآفات الاجتماعية وأسبابها وآثارها، وقد رصد منها ما يلي:

الأول: حديثُ القرآن الكريم عن الفساد بأنواعه:

الثاني: حديثُ القرآن الكريم عن الآفة مع التّصريح بأسبابها وآثارها:

الثالث: حديثُ القرآن الكريم عن أسباب الآفة دون التّصريح بها:

الرابع: حديثُ القرآن الكريم إلى آثار الآفة دون التّصريح بها:

الخامس: حديثُ القرآن الكريم أحيانًا عن آفة ضمن مجموعة من الآفات:

السادس: حديثُ القرآن الكريم عن الآفة مُتدَرّجًا في استقباحها ثمّ تحريمها:

السابع: حديثُ القرآن الكريم عن مجموعة من الآفات مُرتّبةً حسب خُطُورَتها وآثارها:

الثامن: حديثُ القرآن الكريم عن الآفات حفاظًا على مصالح النّاس العُليا، وبيانا لتعلّق الآفات بعضها ببعضٍ:

9- سجّل البحثُ أساليب قرآنية علاجية للآفات الاجتماعية، من شأنها المحافظة على التّماسك المجتمعيّ، وتحقيق المصالح الدّينيّة والدُّنيويّة، وهي دليلٌ على صلاحيّة المنهج القرآنيّ لِسياسةِ المجتمعات في حال صَلاحِها أو فَسَادِهَا وهُبُوب الآفات عليها.

10- لم يكن حديث القرآن عن الآفات حديثًا قصصيًّا، بل كان حديثًا مُوجّها إلى عُمق الآفة، قاصدًا دفع أضرارها وآثارها الوخيمة، محقّقًا مقصد الآية.

11- يلحظ القارئ الدّارسُ لحديث القرآن الكريم عن الآفات الاجتماعيّة رعايةَ العُقُول البَشريّة، وتَشخيصَ الواقعِ المؤثِّر، والرّأفةَ بذَوِي الآفاتِ.

12- يدركُ الدّارسُ لموضُوع الآفاتِ في القرآن الكريم عنايةَ القُرآن المكيّ بالآفات العَقَديّة والتّعبّديّة، كآفات الشّرك والكفر خلافًا للقرآن المدنيّ الذي يعنى أكثر بالآفات السّلوكيّة والعَلاقاتيّة، كآفات السّرقة والقَذف والرِّبَا وشُرب الخمر وما يُحدِثُ اختِلَالا في المنظُومة المجتمعيّة عُمُومًا، ويضعف التّماسكَ المجتمعيّ.

13- يفيدُ البحثُ بأنّ دراسة موضوع الآفات الاجتماعية في القرآن الكريم وعلاجها لا بدّ أن يرتبطَ بمحاوره ومقاصده الكبرى، وكلّيات الدّين وضرورياته الخمس الدّائرة على حفظ المصالح ودرء المفاسد.

14- يفيدُ البحثُ بصلاحية المنهج القرآنيّ في علاج جميع الآفات الاجتماعية ، وفي أيّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية، باعتبارهِ خطابا عامًّا شاملاً، دُستورًا صالحًا لسياسة الشُّعُوب وتنظيم حياتها وعلاقاتها وتهذيب سلوكاتها، وذلك بعد التّهيئة والبِناء الدّعَويّ، في إطارٍ مِن العِلمِ والوَعيِ بمُعطيَاتِ بيئَات الشُّعُوب، وصلاحية أُسلُوبٍ دون أُسلُوبٍ.

15- يفيدُ البحثُ من خلال مواضع ونماذج الآفات التي تَعرَّض لها أو مَثّلَ بها أو أشارَ إليها إجمالاً أنّ مَقَاصِدَ الحديثِ عن الآفات الاجتماعيّة في القرآن يُمكِنُ إرجاعُهَا إلى:

- عِلاج الآفات والمشكلات والأمراض الاجتماعيّة.
- المحافظة على مقاصد الشّريعة الكبرى أو كلّيات الدّين الخمس.
- المحافظة على المصالح العليا للفرد والجماعة ودفع ما يُهدِّدُهَا.
- ضبط النّظام الاجتماعي العامّ الذي يحقّق مصالح الاجتماع البشريّ.

وفي ختام هذه الورقة البحثيّة لا بدّ من الوصية بالقرآن الكريم والعناية بكنُوزِهِ وأساليبه ومنهجيّاته في التّرقّي بالمجتمعات، وتخليصها من المشكلات والآفات، فهو دُستُورُ الأمّة وينبوعُ الحكمة، وأساسُ كلّ بناء، ومصدر كلّ صلاح، مَن أَقبَلَ عليه وَجَدَ خَيرًا كثيرًا، ومَن أَعرَضَ عنه عَاشَ نكدًا وشرًّا عظيمًا.

وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

1- الجامع الكبير، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط2 (1998 م).

2- آفاتُ النّفس كما يُصَوّرها القرآن الكريم – دراسة موضوعية –، للطالبة نعيمة عبد الله البرش، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، بإشراف الدكتور رياض محمود قاسم، في قسم التفسير- كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة (1429 هـ/ 2008م).

3- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيّم الجوزيّة، جمعه ووثّق نصوصه وخرّج أحاديثه يسري السّيّد محمد، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام- المملكة العربية السعودية، ط1 (1414 هـ/ 1993م).

4- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط1 (1376 هـ / 1957 م).

5- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (د، ط).

6- بين علمي أصول الفقه والمقاصد، للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، (ط، د)(1425 هـ / 2004 م).

7- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، (1984 هـ)،

8- تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، للإمام عبد الحميد محمد بن باديس، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1 (1416هـ / 1995م).

9- تفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة، القاهرة - مصر، ط1(1423هـ / 2002م).

10- تفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق أبي عبد الله حسين بن عكاشة- محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة، القاهرة - مصر، ط1(1423هـ / 2002م).

11- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2(1420هـ / 1999 م).

12- تفسير القرآن، للإمام يحيى بن سلام البصري، تقديم وتحقيق الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 (1425 هـ /)،2004 م).

13- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لأبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3 (1420 هـ).

14- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، للشّيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، حقّقه وضبطه ونسّقه وصحّحه محمد زهري النّجّار،عالم الكتب، بيوت، ط2 (1414 هـ/ 1993م).

15- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط1 (1420 هـ / 2000 م).

16- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق الدكتور عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1985م).

17- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للإمام شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المحقق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 (1415 ه).

18- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للإمام أبي حاتم محمد بن حبان البُستي، تحقيق وتصحيح محمد محي الدين عبد الحميد، محمد عبد الرزاق حمزة، محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية – بيروت.

19- رَوضَة النّاظر وجَنَّة المَناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، للإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، قدّم له ووضّح غوامضهُ وخرّج شواهدهُ الدكتور شعبان محمد إسماعيل، مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1 (1419ه/ 1998م).

20- زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1 (1422 ه)، 2/ 130.

21- صحيح سنن الترمذي للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1 (1420ه ./ 2000م).

22- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيريّ النّيسابوريّ، وقف على طبعة وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاهُ، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1 (1412 ه/ 1991م).

23- علم المشكلات الاجتماعية، للأستاذ الدكتور معن خليل العمر، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1 (الإصدار 2) (2005م).

24- علم المقاصد الشرعية، للدكتور نور الدين بن مختار الخادمي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1 (1421ه-2001م).

25- الغريب المصنف، للإمام أبي عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي ، المحقق: صفوان عدنان داوودي، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (ت، د)

26- كتاب العين، للإمام أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د، ط).

27- الكشاف عن حقائق غوامض التنزي، للإمام أبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3 (1407 ه).

28- لطائف الإشارات، للإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، حققه إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ال ط3 (د، ت).

29- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 (1422 ه).

30- المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 (1421 ه / 2000 م).

31- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للإمام أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي، المكتبة العتيقة ودار التراث، (د، ط)، (د، ت).

32- المكتبة الشاملة (الإصدار الثالث).

33- المنهاج القرآني في التشريع، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد،مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ط1 (1413 ه/ 1992م).

34- الموافقات، للإمام إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي، حققه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، القاهرة، ط1 (1417ه/ 1997م).

35- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسّنن، للإمام أبي عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي، دراسة وتحقيق محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد بالرياض، ط1 (1418ه).